في جدلية النهضة والمقاومة

الخليج **31/07/2008,**

"في العلاقة الجدلية بين النهضة والمقاومة"، هو العنوان الذي تصدر الندوة التي عقدها المنتدى القومي في بيروت، بتاريخ 25 تموز 2008، وكان لي شرف المشاركة فيه. والواقع أن هذا الموضوع، جاء وسط احتدام جدل بين المثقفين العرب على علاقة النهضة بالمقاومة. إن أهمية هذا السجال هي التي حرضت على تسجيل بعض الملاحظات التي أتمنى أن تكون جديرة بالاعتبار.

يوسف مكي

وفي هذا السياق، سنستخدم "الجدل"، بمعنى الترابط والتكامل، وليس بمعنى وحدة نضال متضادات، لأن العلاقة بين النهضة والمقاومة كما يفترض علاقة توازن وليس صراعاً، فكلاهما يتجهان في خطين بيانيين يسيران باتجاه واحد متجانس، صعوداً أو هبوطاً، بمعنى أن صعود أحدهما أو هبوطه يعني بالضرورة تماثلاً في الآخر، كما أن وجود أحدهما شرط لوجود الآخر.

أما فيما يتعلق بالنهضة، فإننا نعتمد عناصرها التي أقرتها ندوة مركز دراسات الوحدة العربية في نيسان/ أبريل 2001 تحت عنوان نحو مشروع حضاري نهضوي عربي، وقد تمثلت في ستة أهداف: الوحدة العربية في مواجهة التجزئة، الديمقراطية في مواجهة الاستبداد، التنمية المستقلة في مواجهة النمو المشوه والتبعية، العدالة الاجتماعية في مواجهة الاستغلال، الاستقلال الوطني والقومي في مواجهة الهيمنة الأجنبية والمشروع الصهيوني، والأصالة والتجدد الحضاري في مواجهة التغريب.

وبالنسبة للمقاومة، فهي رفض كافة المشاريع الهادفة للتصدي لمشروع النهضة، ليس فقط بالموقف الذي هو أضعف الإيمان، ولكن بمواجهتها بمختلف الأدوات، اعتمادا على وجود استراتيجية عملية قادرة على دحر تلك المشاريع.

وأول ما يلفت النظر، عند الحديث عن جدل العلاقة بين مشروعي النهضة والمقاومة، هو أن المقاومة لها صلة مباشرة بالمتقابلات التي تقف كمعوقات رئيسية، تحول دون تقدم مشروع النهضة، فكل عنصر نهضوي تواجهه عقبة تحول دون تحقيقه تضطلع المقاومة بالتصدي له. المقاومة هي مواجهة للتجزئة، ومواجهة للاستبداد، ومواجهة للتبعية، ومواجهة للاستغلال، ومواجهة للتغريب، ومواجهة للصهيونية، وللاستعمار بكافة أشكاله. وبالقدر الذي تتمكن فيه المقاومة من إلحاق الهزيمة بحق مجمل المعوقات التي تحول دون انطلاق مشروع النهضة، بالقدر الذي تتقدم فيه الأمة نحو تحقيق أهدافها.

على هذا الأساس، فالمقاومة فعل حضاري، من حيث علاقتها المباشرة بمشروع النهضة. وهي أيضا فعل نضالي وأخلاقي، من حيث تماهيها مع الإيقاع السياسي، المفعم بالأماني بقيام أمة عربية واحدة، ماج بها الشارع العربي. وكان الشعور بوجود حاضن مشترك، يتمثل في الإرث الحضاري والثقافي والتاريخي للأمة، مع

ما يرتبط بذلك من وحدة لغوية وجغرافية واقتصادية، ومن القناعة بأن الرفض لسياسات الاستعمار الغربي، وقاعدته الكيان الصهيوني لن يكون إيجابياً وغير منفعل إلا إذا أصبحت أدواته ومقوماته عمق الأمة، حين تضع ثرواتها وإمكاناتها وطاقاتها مجتمعة في خدمة هذا الرفض، بما يضمن تحقيق الحرية والتقدم والتطور. وذلك الفعل النضالي هو ذاته الذي يستحضر الجوانب الأخلاقية، في مشروع المقاومة، حين يجعل منه دفاعاً عن الأرض والعرض والشرف والكرامة.

وقد جاءت هذه المبادئ والشعارات في سياق تاريخي، وتطور موضوعي، خلاصته أن العصر الذي أعقب نهاية الحرب العالمية الثانية هو عصر التكتلات الكبرى، وأنه ليس فيه مكان للضعفاء، وأن النهوض والتقدم رهن بالوعي والإرادة والقدرة على الفعل.

وإذا كانت الأمور تقيم بنتائجها، فإن القرن المنصرم، والسنوات الثماني التي انقضت من هذا القرن، أكدت بما لا يقبل الجدل أن العلاقات الدولية ديدنها الصراع. وأن الحقوق المغتصبة لا ترد طواعية ولكنها تنتزع انتزاعاً.

فبعد ما يقرب من ثلاثين عاما على توقيع اتفاقية كامب ديفيد عام 1978، وتوقيع اتفاق السلام مع مصر 1979، التي بموجبها استردت سيناء منزوعة السلاح، لا يزال الوضع على ما هو عليه، ولا تزال السيادة العربية منقوصة. إن الذي تحقق حتى هذه اللحظة هو كلام في مقابل فعل، كلام عن دولة فلسطينية مستقلة، ومزيد من بناء المستوطنات والجدران العازلة، وإغلاق المعابر ومحاصرة المدن، وهدم البيوت، ومصادرة الأراضي، ومزيد من الدم المراق. ومما لاشك فيه أن توقيع اتفاقيات صلح مع العدو قد أسبغت مشروعية قانونية ودولية على العدوان، وصعب على الأمة المطالبة، مرة أخرى، بالحقوق المغتصبة.

في المقابل، أنجزت مشاريع المقاومة حالات نهوض ما لبثت أن حملت أبعاداً اجتماعية وسياسية حين ربطت بين الحرية والعدل الاجتماعي. وحين واجهت مصر عدواناً غاشماً، قاومه شعبها ببسالة نادرة، وانسحب الغزاة يجرون أذيال الخيبة. ولم يكن هنالك تفريط. وقيّض لشعب مصر، أن يضيف عيداً آخر إلى أعياده. ولم يكن أمام مصر خيار آخر، غير المقاومة، لأن أي خيار آخر، لن يكون له معنى سوى ارتهان سيادة واستقلال مصر.

وحتى عندما حدثت نكسة يونيو/حزيران 1967، وتمسكت الأمة بخيار المقاومة، وبرزت لاءات الخرطوم عاود الجيش تصديه للعربدة الصهيونية. وسجل أول انتصار له بإغراق المدمرة "الإسرائيلية"، إيلات. وسطر حرب الاستنزاف، التي عبرت عن وعي وإرادة وثبات، ومقاومة ستظل ذكراها حية وملهمة في كل العصور، للأجيال العربية القادمة.

وكان لبنان، وصموده، والأداء الأسطوري لمقاومته الباسلة، قد حسم بشكل نهائي، جدلاً مهزوماً، استمر منذ حرب يونيو/حزيران وتمحور حول "أسطورة الجيش الذي لا يقهر"، و"ما دام النصر مستحيلاً فينبغي احتقاره". لقد حقق حزب الله بانتصاره في حرب التحرير لهذه الأمة انتصارات كثيرة، حين حققت مقاومته تحرير معظم الأراضي التي احتلها الصهاينة في جنوب لبنان، وحقق انتصاراً حين تصدى لزحف الصهاينة في

حرب تموز عام 2006، وألحق هزيمة ماحقة بمشروع الغزو، وحقق انتصاراً حين أعاد الأسرى ورفات الشهداء ليحتضنها وطنهم، ولتكون عودتهم دليلاً مادياً على قوة حضور المقاومين في الذاكرة الجمعية للأمة، وعلى أنهم، شهداء وأحياء، هم الأكرم منا جميعاً. أكثر من ذلك بكثير أن الأمة استعادت ثقتها بقدراتها، وأنهت حقبة من اليأس والإحباط والمرارة والهزائم، مجسدة عمق العلاقة بين المقاومة والنهضة.